وكانت الحياة الثقافية والدينية داخل الجيتو اليهودي وفي منطقة الاستيطان اليهودي في روسيا قد وصلت الى درجة كبيرة من التدني ، ولعل درجة التدني الثقافي والحضاري هذه تظهر في تباهي احد الحاخامات بأن يهود بولندا يكرهون العلوم « فالخالق لا يسر من سهام النحاة الجادة ، ولا قياسات الرياضيين ، ولا حسابات الفلكيين » ، لان الدراسات التلمودية حسب تصوره هي الشيء الاساسي في حياة اليهودي (١٧) . وكان اليهود يعيشون في شبه عزلة عن العالم يؤمنون بالجن والعفاريت والاحجبة (١٨) ، وحينما تعلم المؤرخ اليهودي كروكمال اللغات الاوروبية (الاجنبية) ، كان الحسيديون يظنون ان به مسا من الشيطان (١٩) . ولسد هذا الفراغ الروحي ظهرت فئة « الدراويش » الذين يحملون اسم البعل شيم (صاحب الاسم) وهم اشخاص كانت الجماهير اليهودية تتصور ان عندهم اسرارا باطنية للتحكم والتلاعب بحروف اسم الخالق وملائكته مما يمكنها من ان تطرد الارواح والاشباح ، فكان البعل شيم يكتب حروف اسم الخالق بطريقة جديدة كأن يعكس الحروف ثم يضعها في حجاب لتستخدم كتعويذة . وكان الاعتقاد السائد ان البعل شيم عنده من القدرات ما يؤهله لشفاء الافراد الذين تركبهم العفاريت (٢٠) .

ومما زاد الطين بلة ان الجماهير اليهودية كانت لا تزال تعيش في ظلال ذكرياتها عن هجمات شميلنكي ، وعصابات الهايدماك من الفلاحين القوازق (٢١) ، التي كانت تجوب اطراف بولندا تبث الرعب في قلب اليهود الذين كانوا يمثلون بالنسبة لهم « جامعي الضرائب » البولنديين وقد شاهدت هذه الفترة ايضا اعادة تقسيم بولندا وليتوانيا مما نتج عنه تقسيم الجماعات اليهودية ذاتها .

ادت كل هذه الاوضاع الحضارية والاقتصادية الى ظهور الحركة الحسيدية التي ضمت اعضاء الطبقات المتوسطة الفقيرة الموجودة داخل الجيوب اليهودية في المجتمع البولندي والروسي ، وكما بينا من قبل كانت هذه الطبقة منسحقة نتيجة للتحولات الاقتصادية في المجتمع ، وهي تحولات فتحت الفرصة امام غيرها من الطبقات اليهودية ، واغلقتها دونها ، بل زادتها فقرا على فقرها ، كما انها ظلت طبقة اجتماعية غير منتجة ليس لها اساس اقتصادي واضح . ولعل هذا الوضع الغريب ينعكس على العقيدة الحسيدية التي ترفض العالم نظريا وتطالب التابعين بالزهد في امور الدنيا والهرب منها ! ولكنها في الوقت ذاته تقبل العالم فعليا وترى النقود والثراء على انهما اساسيان للحياة (خاصة بالنسبة لقواد الحركة) . او كما قال احد الزعماء الحسيديين « ان نقود الانسان تحرره ، ونحن لا نعني بهذا الدخل الكافي وحسب وانما نعني الثروة الطائلة فهي ضرورية للعبادة الالهية ، لان تنفيذ كثير من المبادىء والاقوال الدينية يستلزم امتلاك الانسان للثروة » (٢٢) . وقد انعكس هذا ايضا على بنية الفكر الحسيدي فهو فكر يستمد دفعته الاولى من سخط طبقي حقيقي ، ولكنه يتوه في غيبيات صوفية ، ويظهر عداوة للتفكير والعلم والعقل ، فالطبقة المتوسطة الصغيرة كانت طبقة متطلعة تود الصعود ولكنها كانت طبقة خائفة من الراسمالية الصاعدة (التي كانت تدافع عن الاستنارة والقيم العلمانية (٢٣)) . اما قيادة الحركة فكانت اساسا قيادة دينية (٢٤) من المثقفين (لان العنصر الاجتماعي في الفكر الحسيدي ظل خافتا ضائعا مستوعبا في الشكل الديني المطلق المتكلس) ، وقد ظلت الاصلاحات التي تطالب بها الحسيدية اصلاحات لا تتخطى الاطار القائم (٢٥) — وحينما سنحت الفرصه للحسيديين للاستيلاء على ادارة القهال وهو استيلاء كان يتم احيانا عن طريق الاستعانة بالسلطات البولندية لم يقوموا بتغيير شيء بل احيانا زادوا من معدلات الضرائب (٢٦) وقد اتت القيادة الحسيدية الدينية من صفوف الطبقات الفقيرة ، فكانوا من فقراء الوعاظ والمنشدين والمدرسين والذابحين الشرعيين (٢٧) . وكان بعل شيم